الثورة
الجمعة 18 رجب 1433 هـ الموافق 8 يونيو 2012م العدد 17370

المسلمون والخروج من محنتهم

محمد عبدالغني مصطفى

■،، ألم تروا إلى القرقى كيف يتطلعون لزورق النجاة. إنهم مثل المسلمين في محنتهم حيث تواطأت كل قوى الشر على إغراقهم والقضاء عليهم. فمن استعمار غاشم مزق شملهم وفرق كلمتهم ووضع الحواجز بينهم إلى شيوعية باغية طاغية تطعنهم في الصميم، تطعنهم في أغلى شيء يعتزون به.

في دينهم وتنشر الإلحاد بين صفوفهم، إلى يهود مجرمين يستولون على مقدساتهم ويغزونهم في ديارهم، بل لم يعد مستغرباً حصول قارعة تنزل بجماعة من مسلمين أو تحل قريباً من دارهم، حتى أضحت كثير من بلاد المسلمين يصدق عليها قول القائل:

أتى اتجهت إلى الإسلام في بلد
تجده كالطير مقصوصاً جناحاه

غير أن كل ذلك لايفت في عضد المسلمين ولا يقنطهم لأن من صميم عقيدتهم أن لا يقنطوا من رحمة الله إذا أظلمت الدنيا عليهم وأوصدت كل السبل أمامهم، كما قال الله تعالى: »ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون« .

وقال الله تعالى: معزياً عباده المؤمنين وقد نزل بهم من البلاء والشدة وأنواع الأذى من أعدائهم ما نزل »أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب« .

فالمسلمون في محنتهم وكيد أعدائهم لهم إنما يلتمسون نصر الله، ففيه نجاتهم واستعادة مكانتهم والتغلب على أعدائهم.

ولكن ما هو السبيل للنصر وما هي الوسيلة الصالحة للوصول إليه؟

سؤال تختلف فيه الآراء: فمن الناس من يرى إحراز النصر لا يكون إلا بإعداد العدة والقوة المادية، كما قال الله تعالى: »وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة« .

ولكن أثبتت التجربة أن القوة المادية وحدها لم تكن كافية لإحراز النصر، فلقد هزم المسلمون في الماضي أعظم دول العالم وكانوا أشد من المسلمين قوة وأكثر عدداً وأعظم عدة، فما أغنى عنهم ذلك من الله شيئاً فهزموا وغدوا عبرة لكل من يعتد بالقوة وحدها السلاح للنصر.

ومن الناس من يرى أن سبيل النصر وقف على الارتماء في أحضان إحدى الكتلتين الشرقية أو الغربية لإزالة آثار العدوان ووصمته، وقد أثبت الواقع الذي لا يحتمل المغالطة والجدل أن أعداء الاسلام كتلة واحدة سواءً كانوا في الشرق أو الغرب وأن كلاً منهم إنما يدافع عن مناطق نفوذه وليحقق أطماعه وينشر مبادءه.

ومن كان كذلك يستحيل أن يحقق للمسلمين نصراً أو يدفع عنهم عدواناً وخطراً

كل العداوة قد ترجى مودتها
إلاّ عداوة من عاداك في الدين

هذا بالإضافة إلى أن الإسلام يحظر اتخاذ الكافرين أولياء يركن إليهم ويعتمد على مددهم ونصرهم، كما قال الله تعالى: »يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين« .

وقال الله تعالى: »يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولاهم منكم فإنه منهم« .

وهو حظر شامل لكل من يتخذ الكافرين أولياء سواءً كانوا من اليهود أو النصارى أو الشيوعيين الملحدين فالكفر ملة واحدة.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: نهى الله عباده المؤمنين عن مولاة اليهود والنصارى أعداء الإسلام ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال: »ومن يتولاهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين« .

إذاً فسبيل النصر الذي يجب أن يعتمد عليه المسلمون بعد الله ثم بعد إعداد العدة هو الاسلام الذي يتمثل في قوة العقيدة، كما قال الله تعالى حكاية عن نبي الهدى »صلى الله عليه وآله وسلم« وسلف الأمة حين بلغهم أن قريشاً بعد غزوة أعهد تريد الكرة على المدينة: »الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل« . أي الله كافينا فلا نتوكل إلا عليه فلو أخذ المسلمون بكل عوامل النصر مجتمعة لحقق الله الوعد لهم بالنصر، كما قال الله تعالى: »وكان حقاً علينا نصر المؤمنين« .

يقول أحد العلماء – في إيضاح الواجب على المسلمين.

واجب المسلمين اليوم إن أرادوا أن يأخذوا مكانتهم ويستردوا ما فقد منهم أن يرجعوا إلى الوحي الإلهي، وأن يعودوا إلى هدي الكتاب والسنة، وأن يلفظوا الأضاليل والأباطيل، وأن يعتمدوا في حياتهم على النهج الكريم فيكون واقعهم قرآناً يمشي به المسلم بين الناس، وواجبهم أيضاً أن يعرفوا قدر هذه التعاليم وأثرها في حاضرهم ومستقبلهم، بعد أن عرفوا قدرها في ماضيهم وأن يفدوها بأنفسهم وأموالهم ويكونوا بها سياجاً منيعاً، يذودون عنه ويكافحون من أجله.

وهو توجيه أصاب به الموجه عين الحقيقة.

إدارة التوجية والإرشاد بالأمانة
خطيب مسجد الحسين بن علي

حاجة الأُمّة للحوار وآدابه في الإسلام

في ظلّ ما تمرّ به الأُمّةُ من أزماتٍ خانقة عمّت معظم الأقطار العربية إنْ لم نقل جميعها,وكانت سبباً في تضييق الخناق على المواطن البسيط الذي لا ناقة له ولا جمل في هذه الأزمة ولا يعنيه من أمرها شيئاً,لأنّه لا يريد سوى الأمن والاستقرار وتوفير المواد الأساسية للعيش الكريم.

ولأنّ أمد هذه الأزمة في بلادنا قد طال فقد كان لزاماً علينا أنْ نُبيّن لفرقاء وأطراف هذه الأزمة وجوب الحوار وآدابه في الإسلام,باعتباره الحل الأمثل للخروج بالبلاد من دوّامة الصراعات والمشادّات الراهنة.

***في البدء تحدّث الأستاذ سمير أحمد النعيمي بالقول: الحوار من أهم وسائل التفاهم بين الناس، وهو من أهم وسائل المعرفة والإقناع مهما كانت الثقافات والتوجهات، وكذلك من أهم وسائل الدعوة إلى الله، قال تعالى:**

تحقيق/ فايز البخاري

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ).ومن هنا كانت الضرورة ملحة للقائمين على المشاريع والحكومات والطرق الإسلامية أن يتقنوا فن الحوار من أجل الوصول إلى قلوب البشر والتأثير فيها نحو الفضيلة والاستقامة على منهاج الله تعالى وقد اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بأسلوب الحوار، وجعل منه منهجاً في خطاباته للناس ودعوته لهم، لما له من أثر وتأثير بالغين في نفوس المدعوين وعقولهم، ولما له من تحفيز على الطاعات وترك للمعاصي، ولما فيه من تلقين توجيه تربوي لكل الدعاة والمربين إلى يوم القيامة. ومن أبرز حواراته صلى الله عليه وسلم تلك التي كانت بينه وبين قومه المشركين حسب ما يروي ابن هشام عن ابن إسحاق أن عتبة بن ربيعة كان في نادي قريش فقال: «يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟»

فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه، فجاء عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا بن أخي إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكانة في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيم فرّقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل يا أبا الوليد، أسمع.. قال: يا بن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم... قال: فاسمع مني، ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم (حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) فصلت: ١ – ٤، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في القراءة وعتبة يسمع حتى وصل إلى قوله تعالى: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)، فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن القراءة، وذلك خوفاً مما تضمنته الآية من تهديد. ثمّ عاد عتبة إلى أصحابه، فلما جلس بينهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم. ثمّ إن أشراف قريش عادوا فكرروا المحاولة التي قام بها عتبة بن ربيعة، فذهبوا إليه مجتمعين، وعرضوا عليه الزعامة والمال، وعرضوا عليه الطب إن كان الذي يأتيه رئيّاً من الجان.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن ترددوه إليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

قناعة واتباع

● ويضيف قائلاً: وبهذا ندرك أن الحوار وسيلة فاعلة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وهو الأسلوب الأمثل الذي كان يؤثر به في نفوس أعدائه، يستدرجهم بهذا الحوار حتى يصل بهم إلى القناعة والإتباع.

وإنّ الحوار الذي وقع في صلح الحديبية بين النبي صلى الله عليه وسلم ورجالات من قريش يمثلون وفوداً للتفاوض مع النبي صلى الله عليه وسلم وكان على رأسهم بديل بن ورقاء الخزاعي، ومنهم عروة بن مسعود، ومنهم سهيل بن عَمْرٍ الذي كتب الصلح مع النبي صلى الله عليه وسلم، كل ذلك قد مثّل فتحاً مبيناً للإسلام والمسلمين.

وانظر كيف حاور الرجل الذي جاء يستفتيه عن امرأته وقد ولدت غلاماً أسود، فأنكر ذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ألك إبل؟ قال: نعم، قال: فما لونها؟ قال: سود، قال: هل فيها من أورق؟ قال: نعم، قال: فأنى له ذلك؟ قال: عسى أن يكون نزعه عرقه، قال: وهذا عسى أن يكون نزعه عرقه. وإنّ الأمثلة من سيرته صلى الله عليه وسلم كثيرة لا حصر لها، والمقام لا يتسع لمزيد من نماذج الحوار التي كان يمارسها المصطفى في كل الميادين والآفاق، وعلى كل الأصعدة سواء في دعوته أو معاملاته أو أساليب إقناعه، وسواء مع أصحابه أو أعدائه، وسواء في السلم أو الحرب، وسواء في الرضا أو الغضب.

القول المهذّب

● من جهته يقول الدكتور حامد الفقيه: إنّ للحوار آداباً لابد من تحققها أثناء الحوار، لأن الحوار لا يمكن أن يكون ناجحاً ومثمراً إلا إذا توفرت آدابه.

ومن هذه الآداب والأخلاق الإخلاص في النية من أجل الوصول إلى الحق: فلابد أن يتحلى المحاور بنية خالصة لنصرة دين الله، وألا يقصد بحواره المباهاة والمفاخرة والانتصار للذات أو حب الظهور والشهرة، يقول عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...».

إضافة إلى البعد عن التعصب للرأي، فلابد أن يكون المحاور ذا رأي مرن يميل مع الحق ولو كان مع الخصم، وهدف الحوار أصلاً هو الوصول إلى الحق ومعرفة الحقيقة، فيكون التعصب للرأي ضرراً محضاً لا خير فيه، ولن يحقق هدف الحوار.

فضلاً عن احترام شخصية المحاور ورأيه، وذلك من خلال الانتباه لكلامه والإصغاء إليه والابتعاد عن مقاطعته، وعدم اللجوء إلى تجاهله، أو الانشغال بشخص آخر، أو اللجوء إلى النقد الشخصي، مع ضرورة احترام رأيه، وعدم الإساءة إليه، وعدم الجواب أو الرد أو التعقيب أو المداخلة إلا بعد أن ينتهي الآخر من رأيه. مع وجوب الأخذ بعين الاعتبار الحرص على القول المهذب بعيداً عن الطعن والتجريح،فمطلوب من المحاور أن يكون مهذباً في ألفاظه، لأن الكلمة الطيبة صدقة، وهي دليل على حسن النية عند المحاور، كما أن بذاءة اللسان أو التجريح يفسد جو الحوار الهادئ الهادف، يقول عليه الصلاة والسلام: «ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء».

وإلى جانب ماسبق لابد من التزام الطرق الإقناعية الصحيحة: وذلك بالبعد عن المغالطات والمراء والسخرية، وعلى المحاور ألا يناقض نفسه من خلال أدلته، بل عليه أن يستعمل الحجة القوية المقنعة، مع اتباع المنهجية العلمية في الحوار وذلك بوضوح هدفه قبل إجرائه، والبدء في العموميات، والانتهاء بالجزيئات، مع اتساق الأفكار التي يعرضها، وإصلاح المنطق وتهذيبه، والتسليم بالأمور التي هي من المسلمات، مع قبول النتائج التي تم التوصل إليها بالأدلة القاطعة.

الحلم والصبر

● ويستطرد الفقيه: يقول عليه الصلاة والسلام: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً».وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام: (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ).

ولهذا فاعتماد الهدوء والروية والتحلي بالحلم والصبر والوقار شيء واجب، وهذا يعني عدم التسرع والانفعال والغضب بسبب وبدون سبب، فهذا يعثر الحوار ولا ينجحه، فالحلم والصبر يعني التجاوز عن أخطاء الخصم والصفح عنها وعدم مقابلتها بمثلها، ولا يجاري خصمه في الشغب، بل يعتمد الهدوء والوقار.. يقول عليه الصلاة والسلام: «ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

إلى جانب اعتماد المحاورة بمودة واحترام وترفق،فالمودة والاحترام يخلقان جواً من الحوار الهادف البنّاء، أما استصغار الخصم المحاور والتهاون به يولد جواً من العنف وردود الفعل التي لا تحمد عقباها، وإذا تعكر مزاج المحاور فقد فسد الحوار، وانقلب ذلك إلى الطعن والتجريح والإساءة، ولذلك فقد رغّب النبي صلى الله عليه وسلم في الرفق، فقال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».

إضافة إلى ذلك لابد أن تتوافر الحرية في إبداء الرأي مع حق الدفاع عن وجهة النظر:وهذا حق للطرفين المتحاورين لأنه لا يجوز لأحدهما أن يمثل إرهاباً فكرياً يضيّق به آفاق الحوار، ويقتل المواهب والملكات، ولذا يجب تجنب محاورة ذي هيبة لأن ذلك يؤثر على روح الحوار وغايته المرجوّة.

فضلاً عن انتهاج العدل والإنصاف والتزام الصدق،حيث ولابد للمحاور حتى يحقق هدفه بنزاهة وموضوعية أن يتحلى بالعدل والإنصاف والصدق مع نفسه ومع خصمه، ولا يخضع لتأثير هوى الذات أو الحزب أو الجماعة، قال تعالى: (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) الأنعام: ١٥٢.

بل يجب على المحاور إن ظهر الحق على لسان خصمه أن يأخذ به ولا تأخذه العزة بالإثم، ويرفض هذا الحق، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

«الكبر بطر الحق وغمْط الناس». وأن يكون عالماً بموضوع الحوار، فلا يدفعه الجهل والمزاج في سباحة بحر لم يُكلف بسباحته، فذلك يؤدي إلى هلاكه في العاجل والآجل، وقد يضيّع الحق بسبب جهله بموضوع الحوار، فالعلم بالشيء بصيرة به، وقد قال تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) يوسف: ١٠٨.

لغة واضحة

● إلى هذا تحدّثَ الشيخ ناصر علي منصّر بالقول:نظراً لأن المحاورة هي محاولة لإقناع الطرف (الآخر) بوجهة نظر معينة، فإن ذلك يتطلب استخدام لغة قوية عن طريق وضوح الألفاظ، وترتيب الأفكار، وتسلسل المقدمات، وصولاً إلى النتائج المرجوة. ومن هنا فإن المحاورة تتطلب ضرورة استخدام أقل الكلمات المعدّة إعداداً دقيقاً للتعبير عن الفكرة وبيان الحقيقة، كما أن من الضرورة اصطفاء أفضل الألفاظ وأكثرها وقعاً في النفس وتأثيراً على المحاور.

وإذا استخدم المحاور اللغة الواضحة فإن ذلك سيوصله إلى الكلام الحسن الذي يخدم الحقيقة دون لبس ولا غموض، وقد أوصى الحكماء بأن لا ينطق الإنسان إلا بما يفيده أو يفيد الآخرين، أو أن يمتنع عن الكلام، كما أن كتب التراث زاخرة بالحكم والأمثال المتعلقة بضبط الكلام والتحكم به، فقد جاء في الأمثال:

«من نطق في غير خير فقد لغا، ومن نظر في غير اعتبار فقد لها، ومن سكت في غير فكر فقد سها».. «الكلام كالدواء، إن أقللت منه نفع، وإن أكثرت منه صدع»..

«من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلّ حياؤه، ومن قل حياؤه قل وَرَعُه، ومن قَلّ ورعه مات قلبه».. «صد اللسان إلا في أربعة : في الحق توضحه، وفي الباطل تدحضه، وفي النعمة تشكرها، وفي الحكمة تظهرها».

وهناك طريقتان للحوار الفكري في جميع مجالاته، فهناك طريقة العنف التي تعتمد مواجهة المحاور بأشد الكلمات وأقسى العبارات، بحيث يتم التركيز على كل ما يساهم في إيلامه وإهانته، دون مراعاة لمشاعره وأحاسيسه، ولا شك أن هذه الطريقة إنما تنتج المزيد من الحقد والعداوة والبغضاء، وتبعد عن الأجواء التي تساهم في الوصول إلى النتائج الطيبة.وهناك طريقة أخرى تعتمد اللين والمحبة، وتعتبر الحوار وسيلة للوصول إلى الهدف، وهذه الطريقة تعتمد الكلمات الطيبة المرنة التي تقرّب الأفكار وتعمل على توحيد المفاهيم بعيداً عن العنف والشدة.

وقد ركّز الإسلام على الطريقة الثانية في جميع أساليب الحوار من أجل الوصول إلى المعرفة، وأطلق على هذا الأسلوب مصطلح: «التي هي أحسن» ليكون طابع الحوارات الإسلامية في كل المجالات، وذلك في قوله تعالى: ((وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)) (فصلت:٣٣) وفي قوله تعالى: ((ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)) (النحل:١٢٥) ولا شك أن الجدال بالتي هي أحسن إنما يتمثل في إتباع أفضل الأساليب وأحسنها في إقناع الطرف الآخر بالفكرة التي يدور حولها الحوار.

– وقبل الختام «الحوار لا يفسد للود قضية»: عرفنا من قبلُ أن الحوار أمر مشروع، وإذا تم الالتزام بكل آداب الحوار سابقة الذكر فإن القلوب تبقى على صفائها وودها، أما إذا تم التجاوز باستفزاز الخصم والتهكم به وبرأيه وأدلته، ولم تقم لذلك وزناً فسيقابلك بمثل ذلك، ومن هنا تفسد المودة وتسوء العلاقة وتنقطع الأواصر، ويغيب هدف الحوار وهو بلوغ الحق، لذا يجب أن يبقى هدف الحوار قائماً لا يغيب عن جو الحوار، ونية الإخلاص لله ولنصرة دينه هي الغاية العظمى،فضلاً عن الرغبة في تجنيب البلدان الإسلامية الشرور وصد كيد الأعادي وعدم إتاحة الفرصة للمتربصين،وهذا لن يتأتّى أولاً وأخيراً إلاّ من خلال الحوار.

حكم قبول الهدية من المقترض

د . صبري عبدالرؤوف

القرض هو: ما يعطيه الإنسان من ماله لغيره ليسترده مرة أخرى في وقت يتم الاتفاق عليه . والمال المدفوع يسمي: قرضاً . والدافع للمال يسمى: مقرضاً . والآخذ للمال يسمى: مقترضاً . والقرض مستحب لما فيه من القربة إلى الله عز وجل بتفريج كربة المكروب وتيسير الأمر على المعسر . واستدل الفقهاء الأجلاء على مشروعية القرض بما جاء في كتاب الله عز وجل وبما جاء في سنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع الأمة الإسلامية على مشروعية القرض من غير إنكار من أحد . واستدلوا بما جاء في قوله تعالى في سورة البقرة: "مَن ذَا الذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" .

القرض الحسن

ووجه الدلالة في هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى رغب في القرض وجعل القرض لغيره كأنه أقرض الله عز وجل، وفي الحديث الصحيح إخبار عن الله عز وجل: "يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، استطعمتك فلم تطعمني، استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي" .

وهذا كله خرج مخرج التشريف لمن كني عنه ترغيباً لمن خوطب به، ولما رغب سبحانه في الإقراض أتبع بجملة مرهبة مرغبة، فقال جل شأنه: "والله يقبض ويبسط"، أي يضيق على من شاء من عباده في الرزق ويوسعه على آخرين، أي لا تبخلوا عليه بما وسع عليكم، لئلا يبدل السعة التي أنتم بها بالتضييق عليكم . واستدلوا أيضاً على مشروعية الرهن بما جاء في صحيح مسلم عن أبي رافع رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استسلف من رجل بكراً فقدمت إليه إبل من إبل الصدقة، فأمر أبا رافع بأن يقضي الرجل بكره، فرجع أبو رافع إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله لم أجد فيها إلا خياراً رباعياً (أي أفضل مما اقترضنا)، فقال له سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أعطه إياه، إن خيار الناس أحسنهم قضاء" . وقد أجمعت الأمة الإسلامية على مشروعية القرض وأن القرض لا بد أن يكون قرضاً حسناً، أي: أن يكون القرض بلا زيادة عما أخذ المقترض، وهذه مسألة لا خلاف فيها بين الفقهاء . لأن المقرض ما دام قد أقرض الله عز وجل فعليه أن يكون على يقين بأن الله سبحانه وتعالى هو القابض الباسط، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، فما دام كل شيء بيد الله عز وجل فعليه أن يكون عوناً لغيره طاعة لله وشكراً لله على ما أنعم به عليه من نعم، فهو المنعم على الجميع وهو الرازق لمن يشاء بغير حساب .

ولهذا لا يجوز للإنسان أن يأخذ شيئاً مقابل هذا القرض وإلا كان ما يأخذه ربا، ولهذا فقد رأينا الفقهاء اختلفوا في حكم أخذ الهدية مقابل القرض، فالقرض إذا كان خالصاً لله عز وجل ولم يحصل المقرض على فائدة تعود عليه من وراء إقراض غيره فإن قرضه سوف ينال جزاءه من الله عز وجل .

أما اشتراط الهدية على المقترض في مقابل القرض، حتى لو كانت بموافقة المقرض والمقترض، فإن الفقهاء قد أجمعوا على أن هذا القرض يكون حراماً طبقاً للقاعدة "كل قرض جر نفعاً فهو ربا" .

قولان ثابتان

ولكن إذا كان المقرض لم يشترط على المقترض هدية أو ما شابه ذلك على سبيل التعويض في مقابل القرض فهذه مسألة خلافية . فنحن أحياناً نرى أحد الناس يأتيه قريب أو صديق يطلب منه قرضاً بلا فائدة، فنجد المقرض يقول له: أعطيك ما تريد ولكن بشرط أن تعطيني الفائدة البنكية، أي يعطيه النسبة التي يعطيها البنك لمن يتعاملون معه، والطرف الآخر نراه في الأغلب نظراً للظروف الشديدة التي يمر بها يوافق على هذا الاتفاق، ولكن هذا الاتفاق ليس عن طيب خاطر فالمقترض يجد نفسه مضطراً لأنه مقهور، ولهذا رأينا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه" . وهذه الزيادة ليست بطيب نفس، ولهذا كانت الفائدة التي تم الاتفاق عليها حراماً، وهذا بالنسبة إلى الزيادة المشروطة أو الهدية المشروطة، أما إذا كانت الهدية غير مشروطة ولم يكن المقرض ينتظر شيئاً من المقترض وإنما أقرضه ما أقرض من باب تفريج كرب المسلم وإزالة الهم عن قلبه وتيسير الأمر له وفوجئ بالمقترض يأتيه بهدية فماذا يفعل معه؟ ما دام لم يشترط عليه عند طلب القرض وفوجئ به يقدم له هدية غير مشروطة، فإن العلماء اختلفوا في هذه المسالة على قولين:

القول الأول: ذهب إلى جواز قبول الهدية مستدلاً بما رواه ابن سيرين من أن سيدنا عمر رضي الله عنه أسلف أبي بن كعب رضي الله عنه عشرة آلاف درهم فأهدى إليه أبي بن كعب من ثمرة أرضه، فرد سيدنا عمر رضي الله عنه الهدية إلى سيدنا أبي بن كعب ولم يقبلها، فأتاه سيدنا أبي بن كعب وقال له: لماذا لم تقبل الهدية التي أرسلتها إليك؟ فأجابه قائلاً: إنني أقرضتك وهذه فائدة تعود عليّ . فقال له سيدنا أبي بن كعب: لقد علم أهل المدينة أنني من أطيبهم ثمرة، وهذا معناه أن ثمار نخيل سيدنا أبي من أطيب ثمار النخيل بالمدينة، وقد أهدى منها الصحابة الكرام ثم أهدى سيدنا عمر بعد ذلك فقبلها منه .

وهنا نرى أن سيدنا عمر رضي الله عنه حين توهم أن أبي بن كعب أهدى إليه مقابل القرض رفض قبول الهدية، ولما تبين له أن الهدية لا علاقة لها بالقرض قبلها منه .

ورد عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه قال لسيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: "إنك بأرض الربا فيها فاش إذا كان لك على رجل حق فأهدى إليك حمل تبن أو حمل شعير فإنه ربا" .

وهذا القول الثاني يدل على حرية قبول الهدية لمن أهدي إليه مقابل القرض، أما القول الأول فقد ذهب إلى أن الهدية مباحة ما دام المقرض لم يشترط على الهدية من اقترض منه وإنما أقرضه قرضاً حسناً من أجل رضا الله عز وجل ولم ينتظر مثوبة من المقترض وإنما ينتظر المثوبة من الله عز وجل القادر على كل شيء .

وهذان قولان في ما يتعلق بجواز قبول الهدية أو عدم قبولها، والقولان ثابتان بفعل الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين وهنا نقول للإنسان: استفت قلبك، وإن أفتاك الناس وأفتوك . . واتبع ما ترتاح إليه نفسك ويطمئن إليه قلبك .

فإن أخذت بأي القولين فلا حرج عليك، شرط أن تفكر جيداً في ما ستأخذ به وتتأمل دليل كل فريق .

■ أستاذ الفقه المقارن في جامعة الأزهر